الشيخ صالح الكواز الحلي

المتوفى سنة ١٢٩١ هـ

نقتضب هذه الترجمة من كتابنا « البابليات » الماثل للطبع راجين ان يقرأها الذي لا يعمل ولا يحب ان يعمل الناس .

هو الشيخ صالح بن مهدي بن الحاج حمزة الشمري نسبة الى قبيلة شمر المعروفة ، شاعر فى الرعيل الاول من شعراء الفيحاء ومن المرموقين فى وسطه الذي عاش فيه .

ولد في الحلة ونشأ في بيت والده الذي كان كوازاً يبيع الاواني الخزفية والكيزان فاقتدى بابيه واتبع سيرته وزاول مهنته ردحا طويلا من الزمن . غير ان الموهبة الكامنة فيه أبت إلا ان تظهر وان تبهرنا وساعده على ذلك كونه تعلم القراءة والكتابة ودرس النحو والصرف بخلاف أخيه الشيخ حمادي الذي عاش ومات اميا وهو ينظم الشعر الجيد

وكان العامل الاول لتوجيهه هو اتساع الافق الادبي وكثرة النوادي التي كان يترأسها طبوعيا آل القزويني وآل السيد سليمان فكان لها اعظم الاثر في تفرز شعوره وتفتق اكمام ذهنه ، كما ان للمجالس الحسينية التي انتشرت في بيئته انتشارا هائلا وتقديس الناس للخطباء بعثت فيه الرغبة الملحة لقرض الشعر وتذوق الادب فانتمى الى رجال الاتواد وصاحب فريقا منهم ما اصبح يمدحهم خطيبا مفوها ويروي الشعر الجيد ويقوى على قرضه .

عاصر جماعة من الشعراء وساجلهم منهم [١] السيد مهدي السيد داود [٢] الشيخ علي الحسين ـ ويحتمل انه وصيه ـ [٣] الشيخ حسن مصبح [٤] السيد حيدر الحلي [٥] الشيخ عبد الله العذاري [٦] الشيخ عباس العذاري [٧] الشيخ محسن العذاري [٨] الشيخ محمد الملا (٩) السيد ميرزا صالح القزويني (١٠) السيد ميرزا جعفر القزويني وفريقاً كبيراً آخر .

له مقام كبير بين رجال الدين واعلام الادب فكان غذاء المجالس ومتعتها ، وقد رغب جماعة لتقواه أن يأتموا به في صلاتهم فكان يصلي بهم في مسجد [التعيس] في الوقت الذي لم يبارح بيع الاواني الخزفية

وكان الى جانب تقواه وصلاحه ظريفاً فكهاً شأن اكثر اعلام الدين والشعر في عصره فلا تفوته النكتة ولا تغيب عنه ساعة أن تتحقق لها المناسبة واليك طرفا من ظرفه ونكاته عندما مر على إمرأة اسرائيلية فقال على الفور :

وربة ظبية من آل موسى ... أرتنا باللحاظ عصى ابيها
وغرتها تفوق على الدراري ... كأن جبينه البيضاء فيها

ونظر الى طفلة خبازة وهو يمشي في الطريق فقال لها اذا نحن اشترينا منك قرصا ... وقرصا تصرفين لنا قمرلي

ففهمت قصده وقالت له ما عندي « صلف » فقال لقد ادركت مرادي ما اذكاها .

ومن ظرفه : دخل يوما على السيد مرتضى الحكيم وكان الوقت شديد البرد فوضع رأسه بين ركبتيه مالفت نظر الحكيم فقال له ياصالح إنظم المعنى الذي بقلبي فقال الكواز علمت ماتريد ياحكيم : ـ

ان هذا البرد في شدته ... كمظ اضلاعي واحنى قامتي
صار رأسي بين رجلي فلم ... تتميز لحيتي من عانتي

وقيل له يوما على سبيل الدعابة وقد تقدم عمره فاعتراه النسيان مابالك تنسى فقال على الفور : ـ

قلبي خزانة علم ... كان في عصر الشباب
فأتى المشيب فكدت أن ... سى فيه فاتحة الكتاب

ودخل يوما على صديقه الشاعر عبد الباقي العمري الموصلي ولم يعرفه وكان عنده ساقيا للقهوة اسمه « مالك » فقال فيه

قلت مالاسم فدتك النف ... س مني قال مالك

فقال أجزه فقال : ـ

قلت صف لي خدك الزا ... هي وصف حسن اعتدالك
قال كالبدر وكالغ ... صن وما اشبه ذلك

فقال له انت الشيخ صالح فقاما واعتنقا . ومن نوادره ان الشاعر عبد الغفار الاخرس قدم الحلة فحضر في مجلس

ملا احمد المشهدي ، وكان اذ ذاك في الحلة . فدخل المترجم له فقام الجميع اجلالا له . فقال الاخرس مستفهما من هو ؟! فقالوا له هو الذي يقول :

اخرست اخرس بغداد وناطقها وماتركت لباقي الشعر من باق

فتنصل الكواز وقال : قلت ذلك على سبيل الفكاهة ، فقال الاخرس لانت جدير بما قلت .

واجتمع يوما مع صديقيه الشاعرين الشيخ محمد التبريزي والشيخ محمد الملا فاخذ التبريزي يتململ كأنه يريد ان ينشد شعراً فقال الكواز : —

اذا تململت قال قائلنا في استه ضرطة يكابدها
ان هدها ساعة لاسمعنا قصائداً لايزال ينشدها

وكتب يوماً الى العلامة الميرزا جعفر القزويني في شهر رمضان قائلا :

لقد صام كيسي يوم الوصال فلامن حرام ولامن حلال
أترضى بان يغتدي صائماً وانت جدير برؤيا الهلال

ومن اخباره الظريفة انه كتب الى اخيه الشيخ حمادي وذلك في شهر المحرم وكان هو يقرأ في مأتم عند عشيرة [آل يسار] من ريف الحلة وأخوه يقرأ في مأتم أنيق عند آل عسل وآل تمر إحدى بيوتات الحلة فقال : —

ببيت التمر والعسل المصفى وصاح في بيوت من [بواري]
أفيقوا الاقتباس بكم ينادي [أحلوا قومهم دار البوار]

ولا اعتقد أنه يخفى على القارئ جمال الاقتباس في البيت الاخير . والشيخ صالح عند ذاك في حياته تجده كاخوانه من الشعراء الذين رافقهم البؤس وجالفهم العسر فقد قيل فيه وفي غيره [ادركته حرفة الادب] فهو بائس مدقع غير أنه يحمل نفساً رفيعة وقلباً كبيراً ، وعزة ميزته عن اخيه وعن كثير من شعراء عصره الذين تكسبوا بأدبهم او توسلوا به الى اغراضهم ، لذا تراه في شعره قوي الديباجة فخم اللفظ دقيق المعنى منسجم الاسلوب رصين القافية ، وكان للنكت التي يبدع بها مايبعث بأعلام آل قزوين أن يقدموه في انديتهم ويميزونه عن غيره . ولقد اقترح عليه يوما العلامة الميرزا صالح القزويني ان يصنع كوزاً للماء وينقش فيه بيتين من الشعر عن لسان [الكوز] بتوقيعه على سبيل الارتجال فاجابه على الفور

انا [كوز] للماء في شفاء ورواء للعاطش الظمآن
نلت هذا عند الكرام بصبري يوم القيت في لظى النيران

فكان لهما تأثيرهما على القزويني وعلى السامعين ، وله مرتجلا بعد ان سئل عن تركه للشعر : —

قالوا تركت نظام الشعر قلت لهم لذاك ذنب عليكم غير مغتفر
لم القى منكم سوى من ظل ينظرني باعين الرأس لا في أعين الفكر
تستعظمون عظيم الذقن يجلبكم كأن شعر الفتى مقرون بالشعر

وبهذه الابيات تستوضح سمو التفكير في الكواز ونظرته الى الهياكل التي كانت تعيش باسم الدين يومذاك وتستغل سذاجة الناس وكان في كثير من المناسبات يتعرض الى الذين يتسترون وراء الدعاوى الفارغة معتقدين ان الناس في غفلة عن ذلك ومن ذلك قوله في متشاعر يهزأ بالشاعر المجيد ويعنى نفسه

وشاعر ملأ الاوراق قافية ويحسب الشعر في تسويد اوراق
وظل يزري على شعري بقلته وتلك اسمة جهل مالها راق
أما رأى لا رأى جم الكواكب لا
تغني عن البدر في الظلماء باشراق
ولو رآني بعين من قذا حسد باتت خلية أجفان وآماق
لقال لي وبديع النظم شاهده بمذود في بليغ القول مصداق
اخرست « اخرس بغداد » وناطقها
وما تركت « لباقي الشعر » من باق

وفي هذا اللون من الشعر تشعر بان الكواز يحمل روحا سامية واليك من حماسياته قوله : —

قل للزمان لينقص او يزدنوباً فما يزلزل مني طور احلامي
أما الحياة فان طالت وان قصرت
فلا أراها سوى اضغاث احلام
وكيف استكثر الاحداث في زمن
قلت لديه ليالي وايامي

رعى الله فكرى كم يقرب لي فكري
بعيداً كأن عنقاء مغرب في وكر
وكم لي من آمال قومي بمعشر
أراني غنيـاً بت منهم على فقر
فهل نظرت عيناك مثلي في الورى
فتى هو في أيامه معدم الذكر
وكم من محال ظلت أزعم ممكنا
كمن راح نحو البحر ملتقط الدر
أرى الناس عاشوا بادعاء فضيلتي
فمالي محروم وما لحقوا إثري
بليتنا بقوم كالسباع ضواريا
تصول فما تبقي من الصيد في البر
إذا افترسوا لايتركون للاعق
دماً لا ولا فرثاً الى جعل يسري
كأنيابهم مشغولة بفريسة
وأعينهم ترنو الى الصيد في القفر
كأن كل فرد منهم « الحوتة » التي
رأى شعبها عياً « سليمان » في البحر

والكواز بالنظر لوقوفنا على طائفة كبيرة من شعره نجده قد تنوع في اغراض الشعر وفنونه وأجاد في جميع ماقاله وللاطلاع نعرض عليك صوراً من وجدانياته قوله :

علمته شوقي اليه فقال لي لك شاهد فيما إلي تبيح
قلت الدموع فقال لي مقذوفة
قلت الفؤاد فقال لي مجروح
قلت اللسان فقال لي متلجلج
والجسم قلت فقال (ليس صحيح)

ولا تخفى النكتة في الشطر الاخير فقد جاءت القافية خلاف القاعدة النحويه ولكنه تقصد بقوله (ليس صحيح) وهذا مايدلنا على بليغ النكتة الادبيه عنده ، ومن قوله أيضاً

تفرس من عيني أني عاشقه غداة خفيات اللحاظ اشارقه
وزاد يقينا حين فاضت مدامعي
كما في ضياء الصبح يزداد رامقه
وكيف ابتسام السر في قلب عاشق
اذا مابدت في مقلتيه حقائقه
ولي مدمع لاسر للقلب عنده
اذا ما خفى أبداه للناس دافقه
كمثل الحيا يحي النبات بصوبه
فيخرج من تحت التراب حدائقه
فياحبذا وادي العقيق وحبذا نسيم صباً يحي برياه ناشقه

ومن قوله : —

زارت وكانت قبل هاجرة في يوم هاجرة من الدهر
وأتت تروحني فقلت لها برد الهجير وعلة الهجر

وقوله أيضا : —

أعداك خصرك أم عيناك ياجسدي
هذا الضنا أم رماك الناس بالحسد
فليت عين حسود قد رأت عجبا
من وجنتيك رماها الله بالرمد
اني اعيذك فيما قد اعيذ به قدما سميك من سقم ومن نكد

وسورة « النور » من خديك أتبعها
بفجر غرتك الموفى على البلد

وقوله أيضا : —

الناس تحسبني خلي صبابة لكثير ما ألقاهم يتصبر
حتى اذا انظرو حديث مدامعي
يروي الجوى عن قلبي المتسعر
علموا فلا علموا ولاموا ليتهم
عذروا ومن يكلف بمية يعذر

وقوله أيضا : —

أقول لقلبي والحسان كثيرة
ألا كل حسنا تنظر العين تعشق
فقال ألا خلي ملامي في الهوى
ولي مقلة قبلي اليمن ترمق
لحاظك قد أورت بجنبيك جذوة
فهـا أنا في نار اللواحظ أحرق

وقوله ايضا : —

خدود واصداغ وقد ومقلة وثغر وارياق ولحن ومعرب
وورد وسوسان وبان ونرجس
وكأس وجريال وحقك مطرب

وقوله ايضا : —

شعر جبين محيا قامة كفل صدغ فم وجنات ناظر ثغر
ليل صباح هلال بانة ونقا آس اقاح شقيق نرجس درر

وقوله أيضا : —

ان كان يرضيك الذي أجريته أنا لا ابالي زال أم أبقيته
واخيبة العشاق ان كان الذي أخفيته مثل الذي أبديته
قد كدت اهلك في غرامك بائطا لولا رجائي بعض ما اوليته
قدمات قبلي في هواك تصبراً باليت شعري ماالذي جازيته

وهذا قدر يكفي لوقوفك أيها القارئ على لون الادب الوجداني عند الكواز صالح ، أما شعره في أدب الرثاء فقد سجل قطعاً خالدة في واقعة الطف وقصائد عامرة احتلت مكانتها الرفيعة في صفوف أدب الرثاء عند الفراتيين منها قصيدته التي مطلعها :

عجبا لقلبي وهو يألف حبكم لم لا يموت بحرقة الارزاء

وقصيدته في شهداء الطف : —

بنفسي هم من مستميتين كسروا
جفون المواضي في صدور الكتائب

وقصيدته ايضا فيهم : —

ومشرروادتهم عن نفوسهم بيض الضباغير بيض الخرد العرب

وقصيدته في شهيد الطف : —

يا ثابتا في مقام لو حوادثه عصفن في يذبل الانهار مقتلعا

ومن قصيدة اخرى فيه : —

أما في بياض الشيب حلم لأحمق به يتلافى من ليالية مابقي

وقوله من قصيدة اخرى فيه :

لك الله مقتولا بقتلي لك الهدى أباح قديماً قتلها وقتالها

ومن قصيدة اخرى فيه

بأبي باذلا عن الدين نفسا هي نفس الوجود حيث استقاما

ومن قصيدة اخرى في أصحابه

وبلاه من قوم أساء واصحبتي من بعد احساني لكل قرين

ومن قصيدة أخرى فيه وفي ابيه وامه { ع }

ياقلب ماهذا شعار متيم ولعل حال بني الغرام فنون

وغير ذلك من القصائد التي اثبتناها في الاصل . اما رثاؤه لاعلام عصره فقد أجاد فيه وابدع ومعظمه في آل القزويني وآل كبة ، ومن بديع رثائه قوله يرثي طفلا صغيراً له وقد دفن قرب مدينة الحلة عند مشهد الشمس .

ليهن محاني [مشهد الشمس] أنه
هوى بدر انسي عنده بثرى القبر
وكان قديما مشهد الشمس وحدها
فاضحى حديثا مشهد الشمس والبدر

ومع الاسف ان هذين البيتين نسبهما فضيلة الشيخ محمد علي يعقوب التبريزي للشيخ حمادي الكواز عندما كتب عنه في مجلة { الاعتدال } السنة الثالثة ص ٤٧٧

توفي المترجم له في الحلة سنة ١٢٩١ هـ ونقل الى النجف فدفن بها ورثاه فريق من اعلام الشعراء منهم السيد حيدر الحلي بقصيدة كبيرة مطلعها .

كل يوم يسومني الدهر نكلا ويريني الخطوب شكلا فشكلا

وقد اثبتناها في ديوانه الذي نشرناه في باب المراثي العامة . وبهذا القدر نكتفي مرجئين التفصيل للقراء عند خروج [البابليات] ومعتمدين في دراستنا هذه على كتاب (الخصون المنيعة) لكاشف الغطاء ومجموع للشيخ محمد الملا الحلي وعلى « الطليعة » للمرحوم السماوي ، وعلى « الكواكب المنتثرة » للمحقق الطهراني ، وعلى « الادب اللامع » للسيد قاسم الخطيب وعلى رواية شيخ الادب اليوم الشيخ قاسم الملا الحلي ؛

البيان

مطبعة الغري الحديثة
في النجف
مستعدة لطبع الكتب والمجلات والاكدريسات على اختلافها